كليات الكوثري

محمد زاهد الكوثري

وكيل

مشيخة الإسلام باستانبول سابقاً

(سند الامام الكوثري)

في الفقه - الى امام المذهب أبي حنيفة النعمان ثم الى امام الائمة وسيد سادات هذه الامة صلى الله عليه وسلم

تفقه مولانا الكوثري بمصر سنة ١٣٧١ على والده وعلى الاستاذين الحافظ ابراهيم حقي الأكيني وعلى زين العابدين الألصوني كما سلف القول -

فالاول - المتوى سنة ١٣٤٥ كما مر - عن الشيخ احمد ضياء الدين الكمشخانوي المتوفى سنة ١٣١١ عن السيد احمد بن سليمان الارواوي المتوفى سنة ١٢٧٥ عن العلامة محمد امين الشهير بابن عابدين المتوفى سنة ١٢٥٢ وسنده مشهور في ثبته المطبوع وبهذا السند ساق المترجم اجازته لي بالقدوري - وقد سلفت الاشارة اليها - وفيه هبة الله

البعلي المتوفى سنة ١٢٢٤ - وصالح ابن ابراهيم
الجينيني المتوفى سنة ١١٧٠ وغيرهما من عيون المذهب
الحنفي رضي الله عنهم وارضاهم

والاخيران اى الالصوني المتوفى سنة ١٣٣٦
والاكيني المتوفى سنة ١٣١٨ أخذا عن الحافظ احمد
شاكر المتوفى سنة ١٣١٥ عن الحافظ محمد غالب المتوفى
سنة ١٢٨٦ عن سليمان بن الحسن الكريدي المتوفى
سنة ١٢٦٨ عن ابراهيم ابن محمد الاسبيري المتوفى
سنة ١٢٥٥ عن علي الفكري بن محمد صالح الأخسخوي
المتوفى سنة ١٢٣٦ عن محمد منيب العينتابي المتوفى
سنة ١٢٣٨ عن اسماعيل بن محمد القونوي المتوفى سنة
١١٩٥ عن عبد الكريم القونوي الآمدي المتوفى سنة
١١٦٥ عن محمد اليماني الازهري المتوفى سنة ١١٣٥ عن
عبد الحي الشرنبلالي عن ابي الاخلاص الحسن

الشرنبلالی المتوفی سنة ١٠٦٩ عن عبدالله بن محمد
النحریری وشمس الدین محمد المحبی القاهری المتوفی
سنة ١٠٤١ کلاهما عن علی المقدسی المتوفی سنة ١٠٠٤
عن احمد بن یونس الشلبی المتوفی سنة ٩٤٧ عن عبد
البر بن الشحنة المتوفی سنة ٩٢١ عن الامام کمال الدین
ابن الهمام المتوفی سنة ٨٦١ عن سراج الدین عمر بن
علی قارئ الهدایة المتوفی سنة ٨٢٩ عن علاء الدین
السیرامی المتوفی سنة ٧٩٠ عن جلال الدین الکرلانی
شارح الهدایة عن عبد العزیز البخاری صاحب
کشف الاسرار المتوفی سنة ٧٣٠ عن حافظ الدین
عبدالله بن احمد النسفی المتوفی سنة ٧٠١ صاحب
الکنز عن شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الکردری
ح - واخذ قارئ الهدایة ایضا عن اکمل الدین
محمد بن محمود البابرتی صاحب العنایة المتوفی

سنة ٧٩٦ عن قوام الدين محمد الكاكي صاحب معراج
الدراية المتوفى سنة ٧٤٩ عن الحسين السغناقي صاحب
النهاية المتوفى سنة ٧١١ عن حافظ الدين الكبير محمد بن
محمد ابن نصر البخاري المتوفى سنة ٦٩٣ عن محمد بن عبد الستار
الكردري المتوفى سنة ٦٤٢ عن صاحب الهداية على
بن ابى بكر المرغيناني المتوفى سنة ٥٩٣ عن النجم ابى حفص
عمر النسفي المتوفى سنة ٥٣٧ عن الاخوين البزدويين
فخر الاسلام وصدر الاسلام - فالاول المتوفى سنة
٤٨٢ اخذ عن شمس الأئمة السرخسي المتوفى سنة ٤٨٣
شارح السير الكبير وصاحب المبسوط المطبوع
فى ثلاثين جزءا عن شمس الأئمة الحلوانى المتوفى سنة
٤٤٨ عن الحسين بن خضر النسفي المتوفى سنة
٤٢٤ عن محمد بن الفضل البخاري المتوفى سنة ٣٨١
عن عبد الله بن محمد الحارثي المتوفى سنة ٣٤٠ عن محمد

بن احمد بن حفص المتوفى سنة ٢٦٤ عن ابيه ابى
حفص الكبير المتوفى سنة ٢١٧ كما فى تاريخ بخارى
للنرشخى عن الامام محمد بن الحسين الشيبانى الصاحب
المتوفى سنة ١٨٩

واخذ صدر الاسلام المتوفى سنة ٤٩٣ عن
اسماعيل بن عبد الصادق عن عبد الكريم البزدوى
سنة ٣٩٠ عن امام الهدى ابى منصور الماتريدى
المتوفى سنة ٣٣٣ عن ابى بكر احمد الجوزجانى
عن ابى سليمان الجوزجانى عن الامام محمد بن الحسن
الشيبانى الصاحب المتوفى سنة ١٨٩ عن امام المذهب
ابى حنيفة النعمان المتوى سنة ١٥٠ عن حماد بن
ابى سليمان المتوفى سنة ١٢٠ عن ابراهيم بن يزيد سنة
النخعى المتوفى سنة ٩٥ عن علقمة بن قيس المتوفى
سنة ٦٢ والاسود بن يزيد سنة المتوفى ٧٥

وابی عبد الرحمن عبد الله بن حُبَيب السلمی القارئ
المقرئ المتوفی سنة ٧٤ وقيل ٧٣ - فالأولان عن
عبد الله بن مسعود المتوفی سنة ٣٢ رضی الله عنه -
والسلمی عن سيدنا علی عليه السلام المستشهد
بالكوفة فی شهر رمضان سنة ٤٠ - وسيدنا
علی وابن مسعود عن خاتم النبيين وقائد الغر المحجلين
سيد الاولين والآخرين من ملائكة وجن وانس
وانبياء ومرسلين المنتقل الى رفيق الاعلى
ضحی يوم الاثنين ١٣ من شهر ربيع الاول سنه ١١
احدی عشرة صلی الله عليه وسلم وشرف
وكرم وبارك عليه وعلی آله الطيبين الطاهرين
وصحبه الاصفياء المتقين وآخر دعوانا ان الحمد
لله رب العالمين

مقالات الكوثري

بقلم العلامة الشيخ

محمد زاهد الكوثري

المتوفى سنة ١٣٧١ هـ

رحمه الله تعالى

طبعة جديدة منقحة ومخرجة الآيات، قوبلت على نسختين مطبوعتين مزيدًا فيها ما نقص من النسخة الأولى ومصوبًا فيها الأخطاء التي وردت وتكررت في النسختين السابقتين، مع تحقيق بعض النصوص من أصولها

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الثانية
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران
عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

مقدمة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف البنوري
أستاذ الحديث بدار العلوم الإسلامية بباكستان

الحمد للّه رب العالمين وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين من لانبي بعده ، وعلى آله وصحبه الذين حفظوا للإسلام عزه ومجده ، وعلى حملة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فبلغ فيه كل جهده .

أما بعد .. فكنت قرأت كلمة في طبقات ابن سعد (ج 2 ص 105) بإسناد صحيح إلى مسروق – ذلك التابعي الكبير من رجال الكوفة – في حق حبر الكوفة وحبر القادسية وأقربهم إلى اللّه زلفى عبد اللّه بن مسعود قال : لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ ، فالإخاذ يروي الرجل ، والإخاذ يروي الرجلين ، والإخاذ يروي العشرة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، فوجدت عبد اللّه بن مسعود من ذلك الإخاذ .

هذه كلمة كنت قرأتها ، رأيتها صدقت في عهدنا هذا على محقق العصر ، الجهبذ الناقد البحاثة ، الخبير الشيخ محمد زاهد بن حسن الكوثري المتوفى في ذي القعدة سنة 1371 هـ . سواء بسواء . فكان رجلا يتجلى فيه بعصره هذه المزية بأجلى منظرها . رجل جمع بين غاية سعة العلم والاستبحار المدهش ودقة النظر ، والحافظة الخارقة للعادة والاستحضار المحير ، والجمع بين علوم الرواية على اختلاف فروعها وشعبها ، وعلوم الدراية على تفنن مراميها ومقاصدها ، وبين رقة الشمائل ومكارم الأخلاق ، من التواضع والقناعة بالكفاف ، والورع والتقوى ، والصبر على المكاره ، وكرم النفس ، والسماحة بخزائن معارفه ودفائن علمه ، مع علم واسع بنوادر المخطوطات في أقطار الأرض وخزانات العالم ، ثم الغيرة على حفظ سياج الدين ، وإبداء وجه الحق إلى الأمة ناصع الجبين ، كل هذا مع جمال منظر وسيماء ، وقوة هيكل وأعضاء ، فصدق فيه قول اللّه عز وجل ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [1] .

وعلى الرغم من كل حاسد أذعنت القلوب لفضله ونبله ، وسعة علمه واطلاعه ، ولا

---

(1) سورة البقرة الآية : 247 .

تزال هذه الأمة تباهي بأفراد وأفذاذ في كل قرن من القرون المزدهرة بجمال العلم .. بيد أن اللّه سبحانه يخص قرنا بعد قرون بمن يكون نظير نفسه ، ونسيج وحده ، لا يشق له غبار ولا يساجله أحد . وأرى أن الكوثري ممن من اللّه به بعد دهور متطاولة في بلاد الأتراك ، نشأ في بيت العلم ، في مركز العلم ، ورزق قريحة وقّادة ، وطبيعة نَزُوعةً إلى التوسع ، ونشيطة في المكابدة لا يحول دونها ملل ولا سآمة ، وتلقى العلوم من جهابذة عصره ، وغرر وقته ، وكانت بلاد « الآستانة » ينابيع فياضة بنفائس المخطوطات ، وعيونا ثرة متدفقة بنوادر الكتب ، ففتح عينيه ، وشاهد عن يمينه وشماله وخلفه وأمامه مكاتب طافحة بالجواهر الثمينة ، فترعرع فيها شابا ومكتهلا يتضلع من منابعها الصافية بكل رواء ، ثم غربل مكاتب دمشق والقاهرة شيخا مجربا ، وفوق كل ذلك إنه طلب العلم للعلم أولا ، ثم طلبه للحق ثانيًا ، وأرى أن العلم كماله وجماله لا يحصلان إلا بهذا المنحى البديع .

لست أريد الخوض في غمار خصائصه ومميزات علمه ، فإن أمامنا مقالاته وأبحاثه وهي شهود مقانع على ما أشرت إليه من مزاياه ، فترى فيها ثروة علمية فياضة ، يتدفق تيارها في كل ناحية من مناحي التحقيق والبحث ، روايتها ودرايتها .. فقهها وحديثها .. كلامها ومعقولها .. أدبها وتاريخها ، بكل دقة وبكل نصفة وبكل ديانة وبكل أمانة ، ثم كل ذلك بكل صراحة لا يشوبه نفاق ولا مداهنة ولا مواربة ، قياما لخدمة الحق بما يقتضيه الحق ، ونصيحة للدين بما يستدعيه الدين .

قرأت الكوثري من قريب وقرأت للكوثري كثيرا من قريب ومن بعيد ، وأرى أن الحق – والحق يقال – أن القوم لم يقدروا الكوثري بما يستحقه من تقدير وإجلال ، ذلك المحقق ، وذلك البحاثة الناقد ، وذلك الخلق الجميل ، والنبل الجزيل بمعنى الكلمة .

بين يديك أيها القارىء الكريم « مقالات الكوثري » أَجِلْ فيها قداح نظرك الغائر تر كل مقالة وكل موضوع يترقرق فيه علم غزير فياض . ولا أرى بأسا أن أذكر أمهات خصائص مقالاته وكتاباته فيما يلي إجمالا ليكون القارىء بصيرا خبيرًا ، يتذوقه ذواقا قبل تعاطيه ، وتأخذه الأريحية قبل أن يرشح الإناء بما فيه :

1 - كل ما كان يكتب أو أراد أن يكتب يكون الحامل عليه الذب عن حوزة الدين الإسلامي والانتصار للحق ، دون أن يكون مرماه إبداء تحقيق فقط ، أو مغزاه رجاء ثناء الناس عليه . فترى تأليفاته وتعليقاته ومقدماته ومقالاته كلها لا يشذ عن ذلك ذرة .

2 - كل موضوع كتب فيه لا تجد نقلا من غرر النقول في بابه من قرب أو بعد إلا تشاهده هناك بين يديك من مظانه وغير مظانه ومن بطون المجلدات ومن بطون الخزانات الدولية أو

الشخصية ، فتجد غرر النقول مما لا يتلقى إلا بشق الأنفس ماثلة أمامك بكل حسن وجمال .

كفى وشفى مافي الصدور ولم يدع لذى إربة في القول جدا ولا هزلا

3 - كل موضوع ترى في تحليله أراء ناضجة ، وأفكارا صائبة ، وعللا للبحث شافية وافية ، هي نتيجة للبحث الطويل ، والتفكير العميق ، والعلم الوافر ، والسعي المتواصل مما لا يقوم بمثله إلا جهابذة العلم وصيارفة النقد .

4 - أسلوبه في الكتابات مع تجليه بأجلى مظهر الأدب والنزاهة يغاير أسلوب عامة المتأنقين . وربما يحبس بعض المستأنسين بلين القول ورفق اللهجة ، خشونة في الرد ، وقسوة في الدفاع وإنما هي نتيجة حرارة دينية ، وحماسة طبيعية .. الحق عنده أحب إليه من كل شيء باطل ، والصدق أقرب إليه من كل زور ، فطبعا تتغير لهجة الرد على الكلام المردود بما يقتضيه قربه وبعده من الحق ، فهو سمح هين لين مع كل من ضاع صوابه خطأ ، وأما من أراد التلبيس في الحق أو التدليس في الدين فهو معذور في ذلك لا يستطيع اللين معه . فانظر يارعاك اللّه : رجل يذكر أبا الحنيفة الإمام في المسجد الحرام بأبي جيفة ! فكيف هو يقدر أن يلين معه القول . انظر كتابه « النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة » وانظر « تأنيب الخطيب فيما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب » تجد في أسلوبهما فرقا بينا ، تجده في الأول موادعا سمحا لينا ، في حين تراه في الثاني هزبرا مزيرا .

وقصارى القول أن أسلوبه يتفاوت في الشدة واللين بمبلغ الخطورة في الكلام المردود .. وليت شعري إذا لم يكن هذا من قبيل الحب في اللّه والغضب في اللّه فماذا يكون ؟ ترى الناس يستشيطون غيظا إذا كانوا هم أهدافا للملام والطعن ، وتراهم أرحب صدورا إذا فوقت السهام إلى دين اللّه وسنة رسوله ! فذاك التحامل وهذا التحالم والتحمل كل في غير موضعه أمر شنيع !

ويعجبني قول الكوثري في (ص 253) : أما الكوثري فهو - وللّه الحمد - ناصع الجبين جبان رعديد ، لا يجترىء على تخطي حدود ما أنزل اللّه في ذاته وصفاته وأحكام شريعته .. لكنه بطل كرار ، حنيفي حنفي يهد الأصنام كبيرها وصغيرها ، ويسحق رؤوس عُبَّادها بمقامع الحجج من الكتاب والسنة والمعقول ما دام له عرق ينبض ... إلخ .

5 - كل كتاب أو مقالة لأحد ممن يجله ويحترمه إذا ظهر له فيه بعد من الصواب من أية ناحية لا يحول دون الرد عليه صلته بالمؤلف الكريم بالإجلال والتعظيم ، فإن الحق أحب إليه من كل شيء ، انظر كتابه « الاستبصار في الجبر والاختيار » حيث رد به مزالق « الشيخ مصطفى صبري » متكلم عصره ، وكذلك رده في عرض كلامه في بعض كتاباته على

فضيلة المغفور له الشيخ محمد بخيت المطيعي .

6- لاتجد في كل ما يكتب كلمات جوفاء ، ولا تمهيدا فارغا ، ولا بسطا مستغنى عنه في الموضوع ، وإنما يكتب حينما يكتب صفوة ولبابا ، وروحا وجوهرا ، لا يمكن لأحد أن يلخص كلامه .

* وما محاسن شيء كله حسن *

فليس هو يأتي بحشو في البين ، ولا هو يخرج من الموضوع ، وهذا أسلوب متين كالبنيان المرصوص يخضع له كل ذوق سليم .

7- هو محتاط متثبت في النقل ، متيقظ لكل مدلول الكلام مطابقة والتزاما بكل صنوف الدلالات .. انظر أبلغ كتابة له في الرد على نونية ابن القيم وأقسى لهجة في كتبه هل تجد فيه مغمزا ؟ وكان سيفا صقيلا ، وصارما مسلولا ، ومهندا مشهورا ، لم يستطيعوا فله فيه رواية ولا دراية في عشرين سنة مع غاية عدائهم إياه في هذا الموضوع .

8- لا يأتي في الاستدلال بأمور ذوقية أو وجدانية لا تقوم بمثلها حجة على الخصم ، وإنما يأتي ببينات واضحة تقوم بمثلها حجة على رؤوس الأشهاد .

9- هو متصلب في المعتقد كصخرة صماء ، منتصر للماتريدية غاية الانتصار ، حارس متيقظ ، يذب عن حريم الحنيفية كل حملة شنعاء ، ولا تجد لصارمه نَبْوة ، ولا لجواده كَبْوة في هذا الصدد ، وهذا غاية ما يؤخذ عليه ، ولكني أقول متمثلا :

وعيرني الواشـــون أني أحبـــها وتلك شكـاة ظـــاهـر عنك عارها

أو أقول :

ولاعيـب فيهم غيـــر أن سيـوفهـم بهـــن فلـــول من قـــراع الكتائب

وبالجملة فهذه أمهات خصائصه ، ومميزات مقالاته وكتاباته وتأليفاته ، ويطول بنا القول لو أخذنا في سرد شواهد وبينات من غضون رسائله ومؤلفاته .

وقد حان لي أن أشير إلى قطيرات ورشفات من بحر مقالاته بما يكون دليلا للسالك ، وابتهاجا للقارىء الكريم ، كل ذلك بإيجاز واختصار :

هذه المقالات وصل إلي منها إلى (ص 255) ولها بقية فيما أري ، لكن لا أدري كم بقي منها ، مبدؤها بمقالة في المصاحف ومنتهاها بمقالة في الصراع بين الوثنية والإسلام ، وهذه خمس وخمسون مقالة بين طويلة وقصيرة كلها شاهد صدق على طول باع صاحبها

في جميع علوم الإسلام ، ومشاركته في الفنون سائر علماء الإسلام ، وبراعة يترقرق خلالها مهارته البديعة ، وحسن تصرفه في التعبيرات ، والتنبيه على مقاصد الشرع بكلام إمام محقق خبير بما في الزوايا ، بصير بما في الخبايا ، حكيم متغلغل في غايات الدين ومبادئه وأصول الدين الأساسية : عدة مقالات منها كلامية ، وطائفة منها حديثية ، وبعضها في التفسير والقراءات ، وبعضها في الفقه وأصوله ، كلها يرمي إلى غاية سامية في دين الإسلام ، ويصادف الناظر في كل منها شيئا طريفا بديعا . فدونك قولا ملخصا في حقائقها والإشارة إلى أمثلتها :

فقوله في (ص 23) في مقاله مصاحف الأمصار : وتردد الصديق بادىء بدء (أي في كتابة القرآن الكريم) إنما كان بملاحظة أن ذلك ربما يكون سببا للتواكل في حفظه ، والتكاسل في استظهاره ، لا باعتبار التحرج في الكتابة ، قال الله تعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾[1] فأنى يتصور التحرج من كتابة آيات السور في الصحف مع وجود هذه الآية الكريمة .. إلخ .

كلام متين . وكلامه في مصاحف البلاد وتوارثها في القرون كلام في غاية التحقيق . وتحقيقه في وجود المعوذتين والفاتحة في مصحف ابن مسعود وقراءته تحقيق بارع يسكن إليه القلب . وكلامه في (ص 28) في التنبيه على دخائل مستشرقي الغرب مع قيامهم بنشر المؤلفات كلام حاذق خبير يعلم ماوراء الأكمة ، والمقالة هذه كلها في غاية التحقيق ، وفي غاية الحسن والجمال .

والمقالة الثانية في الأحرف السبعة كلها يدل على تغلغل في علوم القراءات والتفسير ، وفيها تنبيهات ونفائس لا يستغني عنها محقق باحث ، وقوله الفيصل في هذا المعترك الضنك مما يقضي لصاحبه بالبراعة ، وسكونه إلى قول الإمام الطحاوي في ذلك ثمرة بحثه الواسع وفكره الناضج .

والمقالة الثالثة في تحقيق الصوت على قصرها متينة جيدة منقحة ، وأكثر النقول فيها بعيدة عن متناول أهل العلم ، والرابعة في كعب الأحبار والإسرائيليات ورأيه فيها في (ص 39) بقوله : وهذا منهج سديد إلى قوله : وهذا اعتذار وجيه . في غاية الحسن والوجاهة ، وفي الخامسة قوله في (ص 40) : ثم إن قول النقاد في الحديث إنه لا يصح .. إلخ تنبيه مهم . والسادسة في الأحاديث الضعيفة المقالة كلها كالمقدمة المهمة للمشتغلين بالحديث .

وفي أسطورة قتل المرتدة تجد نموذجا من مهارته برواة الحديث ، وبراعته في النقد بذوق فقهي وحديثي . ومقالته في حديث معاذ بن جبل في حجية القياس مقالة في غاية الجودة

(1) سورة البينة الآية : 2 .

ونموذج صحيح من علومه في الحديث ورجاله ، والفقه وأصوله في وقت واحد . ومقالته في حديث « لا وصية لوارث » فيها من غرر النقول على أن مضمون الحديث مسألة إجماعية . وفي حديث التشبه (ص 64) نقله لكلام ابن تيمية من « اقتضاء الصراط المستقيم » يدل على رحابة صدره وأن عداءه لابن تيمية إنما هو في شواذه ومعتقداته الخاصة . ومقالته في أحاديث الأحكام (ص 66) تُحدثنا مما آتاه اللّه من الاطلاع الواسع ، والبصيرة النافذة . وكلمته عن موطأ مالك ورواته نتيجة علم منخول مغربل في الرجال والطبقات ، وكلمته عن « فتح الملهم في شرح مسلم » تدل على تقديره لرجال العلم ورحابة صدره للثناء على أهل عصره من غير منافسة ولا منافرة .

ومقالاته في الدين والفقه ، وفي شرع اللّه في نظر المسلمين ، وفي عدم استثناء الإمام من قوانين الشرع وأنه ليس لغير اللّه حق في التشريع . ومقالته حول فكرة التقريب بين المذاهب . ومقالته في أن اللامذهبية قنطرة اللادينية ، وكلمته في خطورة التسرع في الإفتاء – كل هذه المقالات لها قيمتها العلمية من تحقيقات رصينة وأفكار متينة ، وتنبئ من ناحية أخرى عن غيرته على صميم الدين ، وحفظه حوذة الإسلام وسياج الشريعة الغراء ، والصراحة بالحق والإجلال للأئمة المتبوعين ، والسلف الصالحين ، مع ما يلمع من خلالها من تلك الثروة الهائلة العلمية التي تفرد بها الشيخ في أفاضل عصره بكل وضوح وجلاء ، واللّه يختص برحمته من يشاء .

ومقالته في عدم سقوط الجمعة عمن صلى العيد فيها بحث مستفيض من كل جهة ، وهي من خصائص الكوثري . ومقالته في الصلاة في النعال مقالة لم يترك لشفرة محزا وأجاد فيها كل الإجادة . والمقالات الثلاث في الوقف قيمة جدا من جهة التمحيص والتنقيح وإبداء حكمة التشريع ، وحسن المجادلة لآراء الخصم . وكنت أود أن لو دخل الشيخ المحقق في عدة من مسائل الوقف مما يحتاج إلى تنقيح وتمحيص ، ولو كان ذلك لملأ الفراغ الملموس ، ولكنه رحمه اللّه على عادته اكتفى بما طالبته الظروف . ومقالة تعدد الزوجات على اختصارها متينة ، والمقالة التالية لها دقيقة يتنبه لمثلها الكوثري . ومقالته في بيان منشأ إلزام أهل الذمة بشعار خاص مقالة علمية فقهية حديثية تاريخية ، ثم فوق كل ذلك أدبية في غاية الحسن والانسجام تتجلى فيها أفكاره النقية بكل جلاء ، ومقالته في الحجاب تعطيك صورة صحيحة من خبرته الواسعة وعلمه الصحيح ، ومعلوماته المنخولة ، وقد جاء فيها بحل شاف لما اشتبه على كثير من الناس من أهل العلم في مسألة كشف المرأة الوجه واليدين . وعدم الفرق بين عورة المرأة ومسألة الحجاب ، وكلمة العلامة أحمد باشا العثماني في قباحة السفور وحسن الحجاب « لأنهن لا يرغبن غير أن يلدن من غير أزواجهن » كلمة حكيمة طريفة توازي مقالة .

ومقالاته في نظر المرء إلى الشرع اللّه ، ومقالتاه في تحقيق المصلحة في الحكم فيها أبحاث أصولية وكلامية بديعة ، وتنقيح جيد في الفرق بين المصالح المعتبرة والمصالح المرسلة ، وبيان معاني الدليل والأمارة والعلة والسبب والشرط ، ومقالته في العقيدة المتوارثة وما بعدها من المقالات صورة صحيحة لعلمه الصحيح ، وغيرته على حريم الدين الإسلامي ، وتوجيهه في (ص 208) لحديث : « كانت الثلاث تجعل واحدة » إلخ توجيه في غاية القوة واستناده بقول اللّه عز وجل ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [1] ، وبقول النبي ﷺ : « من جعل همومه هما واحدا » إلخ استناد في غاية المتانة والإحكام يكاد يلقم حجرا في أفواه المجادلين .

ومقالاته في الرد على من أنكر نزول عيسى عليه السلام ، وفي الرد على نقض الدارمي ، وفي خطورة القول بالجهة ، والرد على الحشوية المجسمة .. مقالات كلها تنبىء عن حمية دينية على حراسة معتقد أهل الحق من صولات أهل الزيغ ، وصيانة لها عن تلاعب أيدي رجال سفهاء الأحلام ، يسيئون إلى الإسلام وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وفيها لفت أنظار أرباب الحل والعقد من أهل إدارة الأزهر الشريف إلى إصلاح شؤون الأزهر من جهة تربية الناشئة الحديثة ، وكلها في غاية الأهمية عند من رزق بصيرة في الدين وحمية على الشرع المبين ، وغيرة على معتقد السلف الصالحين .

فرحم اللّه الشيخ وضاعف أجره ، فقد كافح ونافح وناضل عن الحق أي نضال ولا شك أن الاعتقاد بمثل هذه المخازي في دين الإسلام يجعله غرضا لكل طعن وهدفا لكل ملام ، ويجعله عرضة للنبذ والاحتقار في نظر الباحثين عن الأديان ، ولا ريب أنه إعانة على هدم أساس الدين ونقض لعرى الدين الوثيقة من أناس متسمين بسمة الإسلام ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون .

ومقالاته في الرد على القصيمى ، ومقالته في تحذير الأمة من دعاة الوثنية ، ومقالته في أسطورة الأوعال ، ثم مقالته البديعة التاريخية في فتن المجسمة ، ورده على كتاب السنة لابن أحمد ومقالته في الصراع الأخير بين الإسلام والوثنية .. كل ذلك مما دبجه يراع عالم متغلغل في حقائق الدين ، بكل حماسة وصراحة حرصا لصيانة وجه الإسلام عن هذه الفظائع والمنكرات ، جزاه اللّه عنا وعن الإسلام خيرا .

فيا أيها القارىء الكريم ! هذه إيماضات إلى قيمة هذه المقالات القيمة الثمينة لاحاجة بنا إلى إنهاء البيان بأكثر من هذا فإنها ماثلة أمامك ، طُف بين أغوارها وأنجادها فالعيان أكبر شاهد .

---

(1) سورة ص الآية : 5 .

كنت أتمنى منذ زمن غير قصير في حياة الشيخ الكوثري جمع مقالاته ومقدماته في صعيد واحد حرصا على إبراز هذه النفائس القيمة من معادنها البعيدة حتى يستفيد منها كل مشتاق يقدر هذه الجواهر الغالية بين حنايا ضلوعه ، حتى عرضت اقتراحي هذا على حضرة الشيخ نفسه ، ووجهت المجلس العلمي بالهند إلى القيام بطبعها ، ولكن كانت هذه السعادة محتومة لصديقنا الفاضل الغيور على الدين فضيلة الشيخ رضوان محمد رضوان فقام بطبع تلك المقالات البديعة بترتيب جيد في غاية الحسن ، فجزاه اللّه عن العلم والدين خيرا ..

وأود أن لو طبع مقدمات الكوثري على كتب شتى على هذا المنوال ، فإني أرى فيه خدمة للعلم ونفعا لأهل العلم ، فمقدمته على كتاب « الأسماء والصفات للبيهقي » ومقدمته على « التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الهالكين لأبي المظفر الإسفرايني » ومقدمته على « تبيين كذب المفتري لابن عساكر » ومقدمته على « نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي » .. وما إلى ذلك من مقدماته وتقدماته على عشرات من الكتب فإن فيها من الفوائد والمغانم ما يساوي بعضها رحلة وطالما اشتاقت لمثلها الأفكار وابتهجت بطلعتها الأبصار .

حديثُه وحديثٌ عنه يُعجِبني هذا إذا غَابَ أو هَذا إذا حَضرا
كِلاهُما حسنٌ عِندي أُسرُّ به لكنَّ أحْلاهُما ما وَافقَ النظرا

هذا واللّه ولي التوفيق والهداية إلى سواء الطريق ، وصلى اللّه على صفوة البرية سيدنا وسيد العالمين ، خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآله وصحبه وبارك وسلم .

يوم السبت 6 ربيع الأول 1373 هـ

كتبه الفقير إليه تعالى
محمد يوسف البنوري عفا اللّه عنه
بمنزله في قرية من مديرية حيدر آباد
السند - باكستان

الإمام الكوثري

بقلم الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة

وكيل كلية الحقوق وأستاذ الشريعة بجامعة القاهرة

1 - منذ أكثر من عام فقد الإسلام إماما من أئمة المسلمين الذين علوا بأنفسهم عن سفساف هذه الحياة ، واتجهوا إلى العلم اتجاه المؤمن لعبادة ربه ، ذلك بأنه علم أن العلم عبادة من العبادات يطلب العالم به رضا اللّه لا رضا أحد سواه ، لا يبغي به علوا في الأرض ولا فسادا ولا استطالة بفضل جاه ، ولا يريده عرضا من أعراض الدنيا ، إنما يبغي به نصرة الحق لإرضاء الحق جل جلاله . ذلكم هو الإمام الكوثري ، طيب اللّه ثراه ، ورضي عنه وأرضاه .

لا أعرف أن عالما مات فخلا مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري ، لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا العلم مرتزقا ولا سلما لغاية ، بل كان هو منتهى الغايات عندهم وأسمى مطارح أنظارهم ، فليس وراء علم الدين غاية يتغياها مؤمن ، ولا مرتقى يصل إليه عالم .

لقد كان رضي اللّه عنه عالماً يتحقق فيه القول المأثور « العلماء ورثة الأنبياء » وما كان يرى تلك الوراثة شرفا فقط ليفتخر به ويستطيل على الناس ، إنما كان يرى تلك الوراثة جهادا في إعلان الإسلام وبيان حقائقه وإزالة الأوهام التي تلحق جوهره ، فيبديه للناس صافيا مشرقا منيرا ، فيعشوا الناس إلى نوره ويهتدون بهديه ، وأن تلك الوراثة تتقاضى العالم أن يجاهد كما جاهد النبيون ويصبر على البأساء والضراء كما صبروا وأن يلقى العنت ممن يدعوهم إلى الحق والهداية كما لقوا ، فليست تلك الوراثة شرفا إلا لمن أخذ في أسبابها وقام بحقها وعرف الواجب فيها ، وكذلك كان الإمام الكوثري رضي اللّه عنه .

2 - إن ذلك الإمام الجليل لم يكن من المنتحلين لمذهب جديد ولا من الدعاة إلى أمر بدىء لم يسبق به ، ولم يكن من الذين يسمهم الناس اليوم بسمة التجديد ، بل كان ينفر منهم ، فإنه كان متبعا ولم يكن مبتدعًا ، ولكني مع ذلك أقول إنه كان من المجددين بالمعنى الحقيقي لكلمة التجديد ؛ لأن التجديد ليس هو ما تعارفه الناس اليوم من خلع للربقة ورد لعهد النبوة الأولى ، إنما التجديد هو أن يعاد إلى الدين رونقه ، ويزال عنه ما علق به من أوهام ، ويبين للناس صافيا كجوهره نقيا كأصله ، وإنه لمن التجديد أن تحيا السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين .

ذلك هو التجديد حقا وصدقا ، ولقد قام الإمام الكوثري بإحياء السنة النبوية فكشف

عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كتبها ، وبين مناهج رواتها ، وأعلن للناس في رسائل دونها وكتب ألفها سنة النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات ، ثم عكف على جهود العلماء السابقين الذين قاموا بالسنة ورعوها حق رعايتها ، فنشر كتبهم التي دونت فيها أعمالهم لإحياء السنة ، والدين قد أشربت النفوس حبه ، والقلوب لم ترنق بفساد ، والعلماء لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة ولم يكونوا في ركاب الملوك .

3 - لقد كان الإمام الكوثري عالما حقا ، عرف علمه العلماء ، وقليل منهم من أدرك جهاده ، ولقد عرفته سنين قبل أن ألقاه ، عرفته في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق ، وعرفته في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها ، وما كان واللّه عجبي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علق عليه ، لقد كان المخطوط أحيانا رسالة صغيرة ، ولكن تعليقات الإمام عليه تجعل منه كتابا مقروءا ، وإن الاستيعاب والاطلاع واتساع الأفق تظهر في التعليق بادية العيان ، وكل ذلك مع طلاوة عبارة ولطف إشارة وقوة نقد وإصابة للهدف واستيلاء على التفكير والتعبير ، ولا يمكن أن يجول بخاطر القارىء أنه كاتب أعجمي وليس بعربي مبين ، ولقد كان لفرط تواضعه لا يكتب مع عنوان الكتاب عمله الرسمي الذي كان يتولاه في حكم آل عثمان ، لأنه ما كان يرى رضي اللّه عنه أن شرف العالم يناله من عمله الرسمي وإنما يناله من عمله العلمي ، فكان بعض القارئين - لسلامة المبنى مع دقة المعنى ولإشراق الديباجة وجزالة الأسلوب - لا يجول بخاطره أن الكاتب تركي بل يعتقد أنه عربي ولد عربيا وعاش عربيا ، ولم تظله إلا بيئة عربية . ولكن لاعجب فإنه كان تركيا في سلالته وفي نشأته وفي حياته الإنسانية في المدة التي عاشها في الآستانة ، أما حياته العلمية فقد كانت عربية خالصة ، فما كان يقرأ إلا عربيا وما ملأ رأسه المشرق إلى النور العربي المحمدي ، ولذلك كان لا يكتب إلا كتابة نقية خالية من كل الأساليب الدخيلة في المنهاج العربي ، بل كان يختار الفصيح من الاستعمال الذي لم يجر خلاف حول فصاحته ، مما يدل على عظم اطلاعه على كتب اللغة متنا ونحوا وبلاغة ، ثم هو فوق ذلك يقرض الشعر العربي فيكون منه الحسن .

4 - لقد اختص رضي اللّه عنه بمزايا رفعته وجعلته قدوة للعالم المسلم . لقد علا بالعلم عن سوق الاتجار ، وأعلم الخافقين أن العالم المسلم وطنه أرض الإسلام ، وأنه لا يرضى بالدنية في دينه ، ولا يأخذ من يذل الإسلام بهوداة ، ولا يجعل لغير اللّه والحق عنده إرادة ، وأنه لا يصح أن يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق ولا يعلي فيها كلمة الإسلام وإن كانت بلده الذي نشأ فيه وشدا وترعرع في مغانيه ، فإن العالم يحيا بالروح لا بالمادة ، وبالحقائق الخالدة لا بالأعراض الزائلة . وحسبه أن يكون وجيها عند اللّه وفي الآخرة ، وأما جاه الدنيا وأهلها فظل زائل وعرض حائل .